

الثورات العربية والاختفاق السوسيولوجي

أ. لخضر سباعي

جامعة مستغانم (الجزائر)

sebaisebai94@yahoo.fr

مقدمة

لعل المتابع للخطابات الإعلامية و الأكاديمية والسياسية العربية والغربية على حد سواء لا يفوته أن يسجل هذا الرواج الواسع الذي تعرفه لفظة الثورة على خلفية التحولات الاجتماعية و السياسية التي باتت تعرفها العديد من الدول العربية ، حيث كانت الشررة التونسية من خلال إقبال بائع خضار متجول على الانتحار يأسا و قنوطا و ضجرا من ملاحظات شرطة السلطة، فتلت هذا الانتحار التاريخي موجة مظاهرات و إحتجاجات عارمة متسارعة لم تتوان حشودها في مطالبة رأس النظام بالرحيل، فكان لها ذلك و أصبح قصرقرطاج بين عشية وضحاها موطئا لأقدام الثوار، لتنتقل العدوى بعد تخطي حاجز الخوف و الصمت إلى المركز الجغرافي والسياسي للعالم العربي، حيث اختمر و تطور الحراك الشبابي الهائج سريعا مؤديا إلى سقوط واحدا من أعنى الانظمة السياسية العربية التي صارت تضرب مثلا صارخا في الشمولية و استنساخ الذات عبر ديمقراطيات شكلية.

وما إن كانت الثورتين المصرية والتونسية توقعا مراحل متقدمة في مسارهما حتى تلقفت درسهما شعوب عربية أخرى، في المشرق كما في المغرب ، فصرنا أمام "تخمة ثورية" عربية غير مسبوقة ، ثورة في اليمن ، وأخرى في ليبيا ، ثم سوريا ، دون إغفال موجات إحتجاجات شعبية في دول أخرى تفاوتت مطالبها و حدتها ومساحتها و جرائها ، بعضها تم وأده و إجهاضه ، وبعضها تم إحتواءه سياسيا أو إقتصاديا ، و البعض الآخر لا يزال يتلمس الطريق إلى الهدف ، و فيما تبقى مآلات هذا الفعل الثوري المنفلت من عقالة غير واضحة المعالم تتزاحم في الفضاء الاعلامي والأكاديمي والسياسي التحليلات والتخييلات والتأويلات للظاهرة الثورية العربية وسط ذهول و إرباك لم تقو النخب المثقفة و الاحزاب

السياسية على هضمه ، وهي التي سلبت منها روح المبادرة إلى التغير من طرف فاعلين جدد أقل ما يقال عنهم أنهم لا يفقهون السياسة ، لكنهم يريدون التغير و فقط.

في فضاء هذا الزخم الثوري العربي المفتوح الذي يلتئم فيه مؤتمر " الفلسفة والتحولات السياسية والاجتماعية " بجامعة وهران . الجزائر تبغى هذه الورقة المقترحة لأشغال هذا المؤتمر مساءلة الظاهرة الثورية العربية المتدفقة من زاوية سوسيولوجية معرفية ، إنطلاقا من فرضية تجاوز الواقعي . الميداني . الاجتماعي للنظري و الفكري في هذه الظاهرة، و هي ميزة نعتبرها خصوصية مقارنة بالثورات التي عرفها التاريخ البشري بشكل عام، على اعتبار أن الحقل المعرفي المرجعي لدراسة الظاهرة بدا . عربيا على الأقل . عاجزا عن تمثل واقعها و مواكبة سيرورتها ، أما رصد أسبابها و توقعها فهو مستبعد بالأساس، لأن التنبؤ الدقيق بالثورات هو سقف معرفي لم تبلغه حتى السوسيولوجيا الغربية المتمرسه بالظاهرة الثورية تنظيرا وتحليلا ، وهذا ما يجعلنا نقر مبدئيا بالفجائية كصفة جوهرية في جميع الثورات على الأقل بالنسبة للحدث "المدشن" .

يجب التنبيه بداية أن الغرض من هذه الورقة ليس كيل الاتهامات المجانية للدرس السوسيولوجي العربي ، بل أن الأمر لا يعدو أن يكون محاولة من أجل زحزحة الاسئلة المقموعة في مسار هذا الدرس و التفكير في آليات و كفاءات إحداث صحوة سوسيولوجية عربية ، تستنفذ الامكانات الايستيمية الهائلة التي جادت و تكرمت بها أخيرا الشوارع والساحات العمومية و مواقع التفاعل الالكترونية نيابة عن محتبرات البحث في الجامعات والمعاهد و مراكز الدراسات الاستراتيجية ، حينذاك فقط نستطيع أن نتمثل عربيا تلك الثورية التي اكتستها بدايات و سيرورات السوسيولوجيا الغربية ، هذا التمثل المأمول في اعتقادي يكون كافيا و كفيلا بالارتقاء بالمعرفة السوسيولوجية من مجرد معرفة خدمية تسكينيه مهادنة ، إلى معرفة نقدية مرافقة، فاعلة ومؤطرة لوعي و سلوك الانسان العربي. حينذاك فقط أعتقد أنه يحدث الخلاص من أسر المقولات المنهجية المبتدلة للسوسيولوجيا الغربية ، والفكاك من بعض حملاتها الثقافية و الايديولوجية الكولونيالية والامبريالية ، كما يتم التحرر أيضا من ضغط الايحاءات السلطوية السياسية بانتاج معرفة سوسيولوجية على المقاس، كما أعتقد أيضا أن تنفيذ هذه المهمة بنجاح لن يتم بدون انفتاح نقدي على الارث العربي الفكري الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، و بشكل خاص نؤكد هنا على نظرية العمران الخلدونية ، التي غالبا ما يتم استهلاكها بشكل فضفاض في سياق التنويه الذاتي بعيد عن الاستثمار المعرفي الفعلي.

1/ في الثورة و السوسيولوجيا غربيا:

تجمع الدراسات و الابحاث العربية والغربية على أن علم الاجتماع (السوسيولوجيا) الغربي نشأ إستجابة معرفية و براغماتية للتحويلات الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية و الفكرية العميقة التي تفاعلت وتلاحقت في مسار التاريخ الأوروبي منذ القرن الحادي عشر، حتى مرحلة الأوج مع الثورة الفرنسية وماتلاها من حراك سياسي و اجتماعي كانت ثورة الطلاب بباريس عام 1968 إحدى علاماته البارزة، والتي سرعان ما تم استنساخها في ساحات بون و لندن ونيويورك، وبراغ و العديد من العواصم الغربية، إبان عقدي الستينات والسبعينات من القرن المنقضي.

بناء على هذا يمكن تصنيف الظروف التي أطرت البحث السوسيولوجي الغربي إلى ثلاث تطورات أساسية ترتبط ببعضها البعض ارتباطا جدليا¹، يتعلق الصنف الأول بالتطورات المرتبطة بالواقع الاقتصادي والاجتماعي، فيما يتعلق الصنف الثاني بالمجال الفكري الفلسفي والديني، أما الصنف الثالث فيتعلق بالمجال السياسي، وحينما يشار إلى الارتباط الجدلي بين هذه التطورات الثلاث فإن المبتغى هو إبقاء هذا التصنيف في مستوى الغاية الاجرائية المنهجية في التحليل لا غير، مادامت الحدود ملتبسة بين الاقتصادي و الفكري و السياسي في الظاهرة الاجتماعية.

فبالنسبة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي يحتفي بها الاشتراكيون والماركسيون كأدوات في التحليل الاجتماعي، تتمثل عند سان سيمون² في التناقضات التي أحال عليها النظام الإقطاعي الزراعي في المجتمع الأوروبي، بعد تنامي طبقة اجتماعية واقتصادية نازعت الايديولوجيا الاقطاعية الراسخة، وأطاحت بها بعد ذلك مستفيدة من فلسفة التنوير وحركة الاصلاح الديني البروتستنتية، والتقدم العلمي والتقني³، وبذلك تم تقويض نظام إجتماعي و اقتصادي و قيمي قديم، وتشكل على أنقاضه نظام جديد اتخذ المدينة مركزا بدل الريف، و انتصر للنشاط الصناعي والتجاري على النشاط الزراعي، و تبعاً لهذا التحول صارت المدن مراكز إستقطاب إجتماعي و اقتصادي، الأمر الذي أفرز مشكلات إجتماعية وإقتصادية ارتبطت أساسا بتعقد علاقات الانتاج و اتساع الهوة بين الطبقات (طبقة الرأسماليين البرجوازية و طبقة العمال البروليتارية)، في هذا الفضاء الاجتماعي و الاقتصادي المعقد صارت مشكلات الصراع

¹- محمد عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ط، دت، ص 72.

²- سان سيمون (1825 - 1760)، فيلسوف و مفكر اشتراكي فرنسي من الذين مهّدوا بأفكارهم لثورته الفرنسية.

³- محمد عودة، أسس علم الاجتماع، ص 73.

بين الطبقات، والتخلف و الفقر و الازدحام في المدن والبطالة الناجمة عن حلول الآلة محل الانسان مادة بحثية دسمة للمفكرين الاوروبيين.

أما التطورات الفكرية الفلسفية والدينية فهي تلك التي ارتبطت من جهة بفلسفة التنوير المنتصرة للعقل في مواجهة النصب المعرفية الميتافيزيقية و الاجتماعية ، ومن جهة أخرى بالمذهب البروتستانتي الناشئ نقدا للكنيسة الكاثوليكية التي مثلت الواجهة اللاهوتية للنظام الإقطاعي الأخذ في التآكل ، ففي خضم حركة التنوير الفلسفية و الإصلاح الديني تمخضت الثورة الفرنسية كتطور سياسي صار مرجعيا عند التصدي لسؤال النشأة بالنسبة للسوسيولوجيا الغربية ، وبالضبط من خلال رائدها أكاديميا الوضعي الفرنسي أوغست كونت .

هكذا إذن تفاعل الاجتماعي و الإقتصادي بالفكري الفلسفي والديني في المجتمعات الأوروبية، لتتمخض التطورات السياسية ، حيث مثلت الثورة الفرنسية نقطة تحول مفصلية على أصعدة مختلفة، ما يهمننا منها صعيد مقارنة الظواهر الاجتماعية، وقد شكلت (ثورة الفرنسيين) تقويضا لنظام اجتماعي أبوي سلطوي يقوم على التراتب ، في الأسرة ، كما في الحياة السياسية، واثق عن ذلك حالة من الفوضى بسبب انتشار الحريات وطغيان النزعة الفردية ، وإزاء هذه الفوضى استشرع أوغست كونت الحاجة لحل معرني مستقل ينتدب له مهمة تقديم معرفة علمية موضوعية بالظواهر الاجتماعية ، لتكون إطارا " لإصلاح الأوضاع الاجتماعية التي أفسدتها الثورة ، أو إعادة البناء الاجتماعي على أساس من البحث العلمي الهادئ ، والتفكير الوضعي بعيدا عن حماس الثوريين واندفاعهم و قدرتهم على الهدم ، وعجزهم عن البناء" ⁴.

مما سبق يتبين لنا أن السوسيولوجيا الغربية منذ نشأتها مع أوغست كونت اضطلعت ب"بحث الوقائع بدلا من الأوهام المتعالية، وبالمعرفة النافعة بدل التأمل العقيم، وباليقين بدلا من الشك و التردد، وبالتنظيم بدلا من السلب والهدم" ⁵، و هذا ما يتلاءم مع معنى "الإيجابية" ⁶ المستفاد من "الوضعية" في اللغة الفرنسية ، وبالتالي وقوفها على طرف نقيض من "الفلسفة السلبية" في صورتها الهيغلية ، أو في صورة النزعات الفردية المستلهمة للروح الثورية ، في هذا السياق نجد هربرت ماركيز (1898 - 1979) يعتبر

⁴- المرجع السابق ، ص 83.

⁵- هربرت ماركيز ، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط 1970، ص 327.

⁶- هربرت ماركيز ، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب ، بيروت، ط 3، 1988، ص 197.

سوسيولوجيا كونت " نظرية وضعية في السلطة" لأنها إتخذت موقفا دفاعيا تبريريا للسلطة القائمة⁷، وأكدت إنتصار المجتمعي على الفردي ، وصار من الواجب حسب كونت " قمع الروح الثورية بنشر تعاليم أخرى تقول أن للمجتمع نظام طبيعي ثابت ينبغي أن تخضع له إرادة الانسان"⁸.

2/ ثورة الطلبة 1968 و الدرس السوسيولوجي في الغرب:

مرة أخرى تكون فرنسا جغرافيا لحراك اجتماعي مزلزل لا يقل مفصلية في مسار السوسيولوجيا الغربية عن ثورة (1840.1789) الخالدة، وذلك من خلال الانتفاضة الطلابية العالمية التي أشعل فتيلها طلبة جامعة نانثير الفرنسية احتجاجا على طرد واعتقال زميل لهم على خلفية تأسيس حركة طلابية مناهضة لنظام التعليم وبرامجه ، ضد مؤسسة الجامعة والمجتمع الذي أنتج الجامعة ، لقد كانت الحركة الطلابية الباريسية الهائجة صرخة في وجه القمع والقهر المادي والمعنوي، والسلطوية العائلية و السياسية والاجتماعية و الأمنية الجائئة على صدورهم ، و تحقن نفس الحرية فيهم، كانت أيضا تعبيرا عن رفض السوسيولوجيا التسكينية التبريرية التي وطّنها كونت و دوركايم في الجامعات والمجتمعات الغربية، كانت حركة الطلاب إيذانا بحلول جيل سياسي شباني ناهض، بقيم جديدة ، ضد جيل سياسي هرم ، كان الجنرال ديغول بثقله التاريخي و القومي صورته البارزة ، هذا الأخير كان جريئا حين خاطب الغاضبين " لقد فهمتكم " ، ثم غادر السلطة بالرغم من فوزه بالانتخابات التي استفتى فيها الشعب الفرنسي عن موقفه من إنتفاضة الطلاب، غادر لأنه وعد بذلك إذا لم تفق نسبة فوزه 60%، و شتان ما بين " فهمتكم " زين العابدين بن علي و " فهمتكم " ديغول؟، و شتان بين جرأته و تشبث كثير من الحكام العرب بأرائكهم الدوارة ، وإصرارهم على القتل و الترويع؟.

هذا المشهد الثوري الفرنسي الغني بالدلالات تكرر أيضا في معظم المجتمعات الغربية التي تناغمت في البوح بالمكبوت النفسي و الاجتماعي و الأسري و السياسي الذي خلفته الرأسمالية المتوحشة ، وما أعطى مصداقية كبرى لهذا الحراك هو إنضمام مفكرين وفلاسفة كبار إليه، على غرار جون بول سارتر، وميشل فوكو، و جيل دولوز، فيما استخف به كلود ليفي ستراوس ، معتبرا الفاعلين الجدد مراقبين لا يمكن التعويل عليهم في خلخلة النظام الاجتماعي.

⁷- هربرت ماركيز ، العقل والثورة ، ص 329.

⁸- المرجع نفسه، ص 330.

و السؤال الأساسي هو من أطّر هذه الثورة الطلابية العارمة التي أحدثت إنقلابا جذريا في بنية الوعي الأوروبي؟، وهو الذي دشّن لتوه ثورات إقتصادية و اجتماعية وسياسية ودينية وعلمية على امتداد القرن التاسع عشر، ليكتشف فجأة أنه وقع في شرك الحداثة السالبة للحرية باسم الديمقراطية والتقنية. إن الإجابة عن هذا السؤال نجدها في مرجعيات فكرية مختلفة أظهرت إمتعاضها الشديد لما بلغته الحياة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية مع الرأسمالية المتوحشة و العقلانية الأداتية، الأمر الذي خلق تدمرا أكاديميا من السوسيولوجيا الكونتية الكلاسيكية المتهمة بالتواطؤ و خيانة الوظيفة العلمية، ويمكن التمثيل على هذه المرجعيات بمدرسة فرانكفورت و درسها النقدي من خلال كتابات هربرت ماركيز، لا سيما كتابه " الانسان ذو البعد الواحد" الذي أرقه سؤال الثورة على القهر الذي يمارسه المجتمع الصناعي على الفرد ، فانهم بناء نظرية إجتماعية نقدية تحلل الطرق التي يستخدمها المجتمع لتدجين أفراد ، بل كان ماركيز والفرانكفورتيين عموما يحرصون على ربط النظرية بالممارسة وهو ما تلقفته ثورة الطلبة 1968 ، "لأن الثورة في نهاية المطاف هي ممارسة، والنظرية الثورية التي تعجز عن التحول إلى ممارسة تصبح عقبة في وجه الممارسة"⁹.

أما المرجعيات الفكرية الفرنسية فتمثلت أساسا في الفتوحات السوسيولوجية التي دشّنها بيير بورديو (1930. 2002)، و جون كلود باسرون ، الذين كان لمؤلفهما المشترك (Les héritiers . Les étudiants et la culture) أثرا مباشرا في شحذ همم و عزائم الطلبة كونه قدم تحليلا عميقا للفضاء الجامعي و العوامل المتحكمة في النظام التعليمي الفرنسي ، وكان من خلاصات هذا الكتاب أن " النجاح المدرسي لا يرتبط بالقدرات والمواهب فقط ، بل يرتبط بالأصل الإجتماعي للمتعلم ، "حيث تعيد المدرسة إنتاج، وبشكل تعسفي الهيمنة الطبقية لشريحة اجتماعية، بتحويل هذه الأخيرة، احتكارا رمزيا بعد أن كان ماديا، للعالم الاجتماعي، وتهميش أبناء الطبقة الفلاحية والعمالية رمزيا بعد أن همّشت ماديا واجتماعيا، وهكذا يغيب البعد الإنساني الديمقراطي الذي يجب على المدرسة أن تلعبه، بولوجها عالم الصراع، وشرعنتها للطرف الأقوى في حلبة ذلك الصراع"¹⁰. و توالى بعد هذا الكتاب إسهامات بورديو

⁹- هربرت ماركيز ، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب ، بيروت، ط 3، 1988، ص 7.

¹⁰- يوسف صديق، الطلبة و إعادة إنتاج الارث الاجتماعي، www.aljabriabed.net/n46_03yusuf.htm

كان أبرزها ثلاثية "بؤس العالم" ¹¹ التي قدمت "درسا نموذجيا في أخلاقية المعرفة ، تاركة هواة الاختصاص في ألقافهم المقلدة ، حيث المعرفة المحض ، الهاربة من غبار الشوارع ، وأحزان البشر، حليف العبودية والاستبداد" ¹².

على العموم فإن الثورات في الغرب كانت تتم دوما وفق سقف معرفي علمي مرافق، تصنعه ويصنعها ، لذلك اغتنت السوسيولوجيا الغربية بإسهامات فلسفية و ايبستمولوجية رائدة ، على غرار تلك التي قدمها ماركيز و فرانكفورتين عبر الاجيال المتعاقبة، و بيير بورديو وميشل فوكو، وجون بول سارتر، أنطونيو غرامشي و لويس ألتوسير، وألان تورين ، وغيرهم ، هكذا إذن كانت علاقة السوسيولوجيا الغربية بالظاهرة الثورية التي نشأت في أحضانها ، فهي علاقة جدلية تألئ السكون إلى المقولات المنهجية ، و تنفتح على النقد المتجدد المستعصي على الاستنفاد التاريخي، لأن العلم حسب أحد رواد السوسيولوجيا "يستمد مشروعيته من وجهات النظر التي تنبثق عنه، وتتعداه ، والتي لا تستنفذه مطلقا ضمن كتلة العلوم" ¹³.

السوسيولوجيا عربيا :

إن الحديث عن علم الاجتماع عربيا يقتطع دوما مساحة لإستدراك الاغفال الذي يتعرض له رائد نظرية العمران البشري "عبد الرحمن ابن خلدون" من طرف بعض الباحثين العرب و الأجانب على حد سواء ، ومهما تكن مبررات هذا الإغفال فإن ابن خلدون بات من الأسماء الوازنة في الفكر البشري في حقول معرفية عديدة ، وليس فقط في الفكر الاجتماعي ، لأن فكره على درجة من الثراء بما لا يمكن إختزاله ضمن "مادة بعينها"، كما أن طريقتة الكلاسيكية في الكتابة و التأليف لا يمكن أن تخفي دقة التحليل المنهجي ، والابداع المفاهيمي الأصيل الذي يعكس خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية ، و لذلك جاء ابن خلدون معبرا بموسوعية قل نظيرها عن حقبة زمنية حساسة في تاريخ الحضارة الإسلامية، " وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على رسوخ قدمه في كثير من العلوم ، حتى لم يغادر فرع من فروع المعرفة إلا وألم به" ¹⁴.

¹¹ - بؤس العالم هو عمل سوسيولوجي ضخّم أشرف عليه بيير مجموعة من الباحثين تحت إشراف بيير بورديو يقع في ثلاث أجزاء (رغبة في الإصلاح ، نهاية عالم ، منبوذ الأرض)، أصدرتها دار كنعان للنشر في طبعة خاصة سنة 2010.

¹² - بيير بورديو، بؤس العالم ، ج1، رغبة في الإصلاح، ترجمة محمد صبح، دار كنعان للدراسات و النشر، ط خاصة، 2010، ص 11.

¹³ - أدرنو تيودور فون ،محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة جورج كتورة، مركز الانماء القومي ، بيروت ، ط 1، دت، ص 106.

¹⁴ - نواف الجراح ، في تقديمه لـ (مقدمة عبد الرحمن ابن خلدون، دارصادر، بيروت ، ط 1، 2000، ص 5.

" المقدمة " و ابن خلدون، يحيل كل منهما إلى الآخر ، ويجعلان معا إلى مفهوم "العمران البشري" الذي هو رديف "الاجتماع الانساني"¹⁵ ، و قد شكل موضوعا أساسيا لإهتماماته، فدرسه كمؤرخ ومحلل اجتماعي و اقتصادي و سياسي ونفساني و انثروبولوجي، وعالم جغرافي ، وفقه و متكلم و لغوي إلى غير ذلك مما تتطلبه الظواهر المتشعبة التي تحدث فيه ، وهذا ما نستشفه من المواد المعرفية الغزيرة التي بثها في المقدمة" بدءا بفضل علم التاريخ و تحقيق مذهب و الاماع بمغالط المؤرخين، مروراً بما يقع في العمران من العوارض الذاتية من الملك والسلطان و الكسب و الصنائع والمعاش و الصنائع والعلوم ، وما لذلك من العلل والأسباب ، و انتهاء إلى أخبار العرب و العجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"¹⁶.

أما ما يتعلق بالمعرفة السوسيولوجية فإن صاحب المقدمة أحاط بمختلف الظواهر التي تقع في المجتمع البشري، وعمد إلى فهمها و تحليلها ، وضبط طبائعها، وصنف المجتمعات و الحضارات وبين المراحل التي تمر بها ، وحلل الملك و وقف على أسباب قوته و ضعفه ، و أبدع جهازا مفاهيميا عربيا أصيلا (العمران البدوي ، العمران الحضري ، العصبية ، الصنائع ، المعاش، طبائع العمران ،) ، فضلا عن كثير من الخلاصات و القواعد العلمية والمنهجية في الكتابة التاريخية ، وفهم فلسفة التاريخ ، وتحليل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية و حتى الجغرافية ، غير أن حظ الفكر الخلدوني كان سيئا لأنه تمخض في فترة تاريخية كانت فيها الحضارة العربية الاسلامية تدشن آخر فصول السقوط ، وازداد حظه سوءا عندما بقي بدون وريث حتى الآن ، و لذلك أيضا لم يحتف به الاحتفاء الملائم لجدارته العلمية ، ولأن " المغلوب مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره ، وزينه ، ونخلته، وسائر أحواله و عوائده"¹⁷ ، وتلك قاعدة اجتماعية هو مقرها، وتبعها لها يغفل و يحتفى بأوغست كونت ، وماركس و سبنسر و دوركايم و ماكس فيبر و غيرهم.

البدايات، التجاذبات ، فالقصر السياسي:

تعود البدايات الاولى لعلم الاجتماع عربيا في سياق مساعي التحديث الفكري والعلمي التي قام بها محمد علي باشا والي مصر (1805.1848) من خلال البعثات العلمية إلى أوروبا، و بالرغم من عدم وجود هذا التخصص ضمن أولويات محمد علي ، فإن الكثير المبتعثين علميا استشعروا ضرورة ترجمة النصوص التأسيسية لهذا العلم التي دشنها فلاسفة الغرب ، أوغست كونت ، سبنسر ، و بشكل خاص إميل دوركايم

¹⁵ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دارصادر، بيروت ، ط 1، 2000، ص 39.

¹⁶ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دارصادر، بيروت ، ط 1، 2000، ص 13.

¹⁷ - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، دارصادر، بيروت ، ط 1، 2000، ص 114.

صاحب "قواعد المنهج في علم الاجتماع" ، الذي تتلمذ على يده الجيل الأول من السوسيولوجيين المصريين ، ك علي عبد الواحد وافي ، ومنصور فهمي باشا ، هذا الأخير الذي تمكن من إدخال مناهج علم الاجتماع إلى الجامعة المصرية ، "ثم أقنع القائمين عليها بإرسال بعثات علمية للحصول على الدكتوراه في علم الاجتماع"¹⁸ ، وقد توجت هذه البعثات بإفتتاح أول قسم لعلم الاجتماع في مصر سنة 1953 برئاسة علي عبد الواحد وافي الوفي للمدرسة الدوركائمية الفرنسية¹⁹ ، التي سرعان ما لاقت منافسة بعد عودة المبتعثين إلى بريطانيا حيث مثل هريبرت سبنسر مرجعية مختلفة تماما.

ومن الذين تأثرو بالمدرسة الانجليزية ذات النزعة الامبريقية "حسن الساعاتي" الذي أنجز . مستوحيا الافرازات الاجتماعية للثورة الصناعية في إنجلترا . دراسات ميدانية للتأثيرات الاجتماعية لثورة التصنيع التي انتهجتها ثورة يوليو 1952 بمصر ، ثم تنافلتها دول عربية أخرى كسوريا والجزائر ، كما عرفت هذه المرحلة دخول المدرسة الأمريكية المختلفة نسبيا إلى الجامعات المصرية والعراقية ، عبر المتخرجين من الجامعات الأمريكية من أمثال المصري سيد عويس و العراقي علي الوردی (تلميذ محمود الجوهري) ، الوردی هو الذي قدّم "ابن خلدون" لأمريكا كرائد لعلم الاجتماع في القرن الرابع عشر" ويعتبره الباحث سعد الدين ابراهيم " المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع في العراق ، وقد تمثل إنجازة في تعليم جيل من العراقيين كانوا أكثر تمرسا بمناهج البحث الميدانية والكمية من نظرائهم في بقية الأقطار العربية"²⁰ .

أما في الجامعات المغاربية فإن الحديث عن بدايات علم الاجتماع فيها يرتكن دوما بالوظيفة الخدمية الكولونيالية التي أسندت لـ "مدرسة الجزائر للعلوم الاجتماعية"، التي كانت أهدافها عسكرية بامتياز²¹ ، وهي المدرسة التي اضطلعت بتقديم المعرفة الامنية حول سلوك الأهالي الجزائريين و ثقافتهم و انشطتهم، ثم امتد نشاط المدرسة إلى المغرب بابتعثات باحثين "للتعرف على لغات ومؤسسات المجتمع المغربي ، و أصول قبائله و أعراقها ، والمعتقدات الدينية والزوايا"²² لتكون مدخلا للنفوذ و الهيمنة ، وهذا ما حصل باعلان الحماية على المغرب بعد الاحتلال الدموي للجزائر.

¹⁸ - سعد الدين ابراهيم ، المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 400، جوان 2012، ص 97.

¹⁹ - المرجع نفسه، ص 98.

²⁰ - المرجع نفسه ، ص 102.

²¹ - عروس الزبير، منخل إلى تاريخ وواقع الممارسة السوسيولوجية، مجلة المستقبل العربي، العدد 400، جوان 2012، ص 111.

²² - المرجع السابق، ص 113.

بهذا الصدد يبين مؤرخو السوسيولوجيا المغاربية الفرق بين "مدرسة الجزائر" وفرعها المغربي (مدرسة المتروبول) ، من حيث أن الأولى كانت ذات توجه عسكري معلن ، بينما الثانية كانت مهادنة رغم طموحها المضرر للهيمنة ، وقد استفادت مدرسة الميتروبول من دراية مبتعثيها بلغة الأهالي و القبائل ومعتقداتهم الدينية و ثقافتهم الشعبية و الزوايا .

أما بعد الاستقلال فقد حاول المغاربة بتأطير بعض السوسيولوجيين الفرنسيين التخلص من الحمولة الكولونيالية للبحث السوسيولوجي ، من خلال تأسيس كلية الآداب والعلوم الانسانية بتوجيه ملكي سنة 1959، وترأسها شارل أندري جوليان، و هي الكلية التي حاولت أن تجمع شتات المعاهد و المدارس التي نشأت في الفترة السابقة ، وهنا يجب التأكيد على دور الارث الأكاديمي الفرنسي في السوسيولوجيا المغربية من خلال الجهود و الاسهامات التي قدمها كل من جاك بيرك ، بول باسكون الذين أبدأوا إنتصارا للروح العلمية ضد الكولونيالية، فشكلا نواة أكاديمية صلبة للدرس السوسيولوجي في المغرب.

وفي الوقت الذي كان فيه معهد علم الاجتماع المغربي المنشأ عام 1960 في مرحلة النضج، نشأ أول معهد لعلم الاجتماع بجامعة الجزائر سنة 1970، أي أن علم الاجتماع المغربي كان قد تخطى مرحلة التكوين إلى مرحلة البحث ، ثم إلى مرحلة وضع استراتيجية شاملة تحدد مهمة العلوم الاجتماعية ، بينما كان في الجزائر يتلمس طرق الاستقلال عن الفلسفة، و وقد كان هدف الوثبة السوسيولوجية المغربية بناء أرضية نقدية متحررة من توجيهات الدولة ، وقد تعززت هذه الوثبة بدخول المدرسة الانجلوسكسونية على الخط بعدتها النظرية والامبريقية، لكن السلطة استشعرت الخطر الداهم من طرف السؤال السوسيولوجي فأقبلت سنة 1970 على غلق المعهد الذي أصبح يعرف تناميا يساريا تناغم مع ثورة الطلاب الباريسية، وبعد خمسة سنوات عاد المعهد إلى النشاط لكن بفعالية أقل، بتأثير الوضع الداخلي ، الذي عرف صدور قانون الحريات و إصلاح نظام التعليم في المغرب ، وفي هذه الفترة برزت جهود مُجدّ جاسوس الذي سعى إلى تأسيس نظرية سوسيولوجية نقدية مستقلة .

أما في الجزائر فكان الوضع مختلفا نوعا ما بالرغم من الدور الذي لعبه بيبورديو الذي أسس رفقة عبد المالك صباد "الجمعية الجزائرية للبحث في الديمغرافيا و الاقتصاد وعلم الاجتماع"²³، وقد عرف علم الاجتماع الجزائر تجاذبا بين المدرسة الفرنسية التي يمثلها الفرنكفونيون، والمدرسة الانجلوسكسونية الي يمثلها خريجو الجامعات البريطانية ممن إطلعوا على النظريات السوسيولوجية المنتجة من واقع سوسيوثقافي (هندي . أسويي بحكم العلاقة الاستعمارية) مختلف بوساطة الترجمات أو بالأحرى التأولات المصرية ، وقد

²³ - المرجع السابق، ص 121.

أثر هذا التجاذب على فعالية البحث السوسيولوجي، ثم تعمقت المأساة بسياسة التعريب التي فصلت المعرفة عن جذورها الأكاديمية، وفي هذا الوضع وجدت معاهد السوسيولوجيا نفسها تؤدي دورا تعليميا سكولاستيكيا محضا ، فكانت السوسيولوجيا التي "درّست في الجزائر ، والأعمال الميدانية المنجزة باللغة العربية منذ 1984 إلى إيماننا هذه إنما تطعيمها بخطابات و تطعيمات تقريبية مشوهة ، بينما استلهمت الاعمال المنتجة بالفرنسية مرجعياتها من التقليد الفرانكفوني . الجزائري" ²⁴.

و نفس الملامح نجدها في الجامعات التونسية التي برز فيه كل من عبد الباقي الهرماسي ، والطاهر لبيب ، و عبد الوهاب بوحديبة ، وهم الذين نهلوا من الثقافة الغربية ، عبر رافدها الفرنسي.

3/ عاهات السوسيولوجيا عربيا:

أمام هذا التحول الثوري الذي يعرفه العالم العربي يكون طبيعيا أن ينصبّ النقد نحو الفكر والسوسيولوجيا تحديدا، واتهامها بالقصور في انتاج معرفة علمية موضوعية بالاختلالات العميقة والاكراهات النفسية التي ظلت تتفاعل في وعي و لاوعي العربي فردا وجماعة، بل تصير التهمة أخلاقيا أحيانا عندما يرمى السوسيولوجيين بالتواطؤ مع السلطة في تأييد الأوضاع ، وتسكين الساكنة و تخدير وعيهم بمعرفة مشوهة، يحدث ذلك حين يتعفف هؤلاء عن النزول إلى الواقع و معاقرة الظواهر الاجتماعية الحية ، ويكتفون ببيانات و خلاصات سبر تحكّمية مطمئنة للمؤسسات البحثية و السلطة السياسية.

نقد السوسيولوجيا العربية غالبا ما ينطلق من إتهامها باجتراح النظريات والمناهج الغربية و إسقاطها على المجتمعات العربية دون تبصر لحمولاتها الثقافية ، بل حتى هذا الاجتراح يعاب عليها من جهة أن البحث السوسيولوجي العربي كثيرا ما يشوه تلك النظريات المستورة أو يكيّف الوقائع لتمنح الصدقية لتلك النظريات، هذا فضلا عن الافراط في النظرية و ضحالة العمل الميداني ، و الغريب أن هذه العاهات الي تعانيها السوسيولوجيا عربيا هي محل وعي من طرف أهل الاختصاص و يعترفون بها صراحة.

علي الكنز(عالم اجتماع جزائري) : يرى هذا الأخير أن الممارسات السوسيولوجية العربية تابعة ومقلدة للنظريات الغربية ،الفرنسية و الانغلو سكسونية كل حسب مجاله التاريخي، وهذه النظريات هي " دخيلة من انتاج غربي ، وغير معدة لتلائم البيئة الاجتماعية المحلية" ²⁵ ، وهكذا يرى علي الكنز أن النظريات المختلفة مثل البنيوية و الوظيفية والماركسيات الأتية من باريس وفرانكفورت ، و موسكو وروما

²⁴- المرجع السابق، ص 125.

²⁵- أحمد ابراهيم خضر، اعترافات علم الاجتماع، المنتدى الاسلامي، لندن ، ط 1 ، 2000 ، ص 30.

وغيرها نشأت إنطلاقاً من إشكاليات ثقافية والاجتماعية واقتصادية محلية غربية، وتم نقلها و ترديدها بشكل آلي وإسقاطها تعسفياً على وضعيات عربية محلية، ويتابع علي الكنز أن الأدوات المنهجية السوسيوولوجية المستوردة ، المبتورة عن سياقها المعرفي السوسيوثقافي لا يمكن أن تنتج لنا في واقع مغاير كالواقع الغربي سوى نتائج مشوهة ، في نفس السياق نجد أن علماء الاجتماع العرب يأخذون النظريات الغربية تماماً وكأنها خلاصات مكتملة مقدسة ، في حين هي اجتهادات نسبية لها مشروطيتها التاريخية والثقافية، ولذلك ما فئت تتعرض في فضائها الأصلي للمساءلة النقدية و التحوير والمراجعة و الالغاء أحيانا ، فيما لا تزال تؤدي في أبحاثنا الاجتماعية وظيفة العقائد الايستيمية الارثودوكسية.

محمد عزت حجازي (عالم إجتماع مصري) : يذهب بعيدا في اعترافه بإخفاق السوسيوولوجيا عربيا حين ينفي صفة الابداع عن المشتغلين داخل هذا الحقل و هو من طائفتهم يقول "إننا لا نتج علما حقيقيا ، وإنما نستورد و نستهلك بدون تبصر ، ونخلط في ذلك بين ما يمكن أن يفيد و ما لا غناء فيه"²⁶.

و الشيء الأخطر ليس العجز عن الابداع و إنما هو دخول عالم الاجتماع عندنا طوعا أو إكراها في علاقة زبائنية مع السلطة ،حينما يتملص من وظيفة المثقف العضوي الملتحم بالواقع الاجتماعي ، ويتحول إلى خياط بدلات حسب المقاس ، لما يضطلع السوسيوولوجي بهذا الدور تحدث المقايضة بينه وبين السلطة ، المال و الثناء و المناصب مقابل "إلغاء النقد و تزوير الحقائق ، أي إضفاء فضائل متعددة على السلطة و هي غريبة عنها ، مما يجعل تثبيت الواقع إن أمكن هي وظيفة وحيدة للمثقف السلطوي"²⁷، وهذا ما يقره عزت حجازي بقوله : "لقد تحول معظم المشتغلين بعلم الاجتماع إلى مفكرين بأجر، يبحثون و يدرسون و يكتبون في حدود ما يطلب منهم ، ويؤجرون عليه، وتردى بعض منهم في الغفلة بدون قصد ، وتمادى آخرون في طريق الانتهازية و الوصلية"²⁸.

كما يؤكد عزت حجازي على الاغتراب الفكري والنظري الذي يعانيه علماء الاجتماع عندنا " فهم يعيشون في بلادهم بأجسامهم ، بينما يعيشون هناك في الخارج بأفكارهم ، و فهمهم و تطلعاتهم ، ونظرتهم إلى الحياة لقد بلغ اعتمادهم على علم الاجتماع الغربي و الامريكي حد التوحد معه ، دون تقدير موضوعي لقيمتهم و افادة واعية منه"²⁹.

²⁶ - أحمد ابراهيم خضر ، المرجع نفسه، ص30.
²⁷ - بيير بورديو، بؤس العالم، ج3، منبوذو العالم، ترجمة رنده بعث، دار كتعان للدراسات و النشر ، طبعة خاصة، 2010، ص 08 .

²⁸ - أحمد ابراهيم خضر ، المرجع السابق، ص30.

²⁹ - أحمد ابراهيم خضر ، المرجع السابق، ص 29.

4/ الثورات العربية و الاخفاق السوسيولوجي:

لما كانت هذه حقيقة السوسيولوجيا عربيا، اجترار للمناهج و المفاهيم و تطويع للوقائع لتمنح المشروعية للنظريات التفسيرية الغربية التي استبدت بالمشتغلين في هذا الحقل، والخنوع لطلبات السلطة و الانخراط في ترويج الاوهام بدل الحقائق، كان حتميا أن تحدث الحياة الاجتماعية العربية أخبارها ، وتكشف عما ظل يختمر في باطنها منذ عقود ، حيث لم تعد هناك مساحة و لا مسافة زمنية و لا مكانية لتحمل مزيدا من القهر و الفقر والعنف و الظلم السياسي و الاجتماعي والاقتصادي و الفكري ، و لهذا تكون نظرية الكبت هي الأقرب إلى الصواب في تفسير هذا المد الثوري الذي تشهده المجتمعات العربية ، وحينما نعطف الاخفاق السوسيولوجي على هذه الثورات فإن المبتغى ليس مزيدا من جلد الذات العربية المفكرة ، بل الدعوة إلى إنهمام وجداني بهذا المنجز التاريخي و قراءته وفقا لأليات متحررة إلا من البراديغم السوسيولوجي الذي يقتضي القطع مع ما ينبغي الحس المشترك و الايحاءات و الهواجس السياسية و الثقافية القيمة، هذا البراديغم يتطلب أساسا الانصات و إصاخة السمع للاجتماعي في الفضاء الاجتماعي ، بدل الممارسة البيروقراطية والتكنوقراطية التي ترهن القراءة السوسيولوجية بتقنيات ميكانيكية خاوية كالسبر مثلا ، الذي هو " وسيلة بسيطة موضوعة لخدمة كل الغايات الممكنة ، قد تحول إلى أداة عمياء بشكل منطقي للديماغوجيا ، فإنه ليس بوسعه أن يحارب بمفرده ميل رجال السياسة إلى إرضاء المطالب السطحية ليؤمنوا لأنفسهم النجاح، بحيث يجعلون من السياسة شكلا من أشكال التسويق مموها بالكاد"³⁰.

لقد بات واضحا على ضوء الاوضاع الميدانية في الشارع العربي و ما يوازيها و يصاحبها من نقاشات فكرية عامة وقطاعية ، سياسية أو إقتصادية ، أن الثورات العربية أبانت عن عقم و قصور منهجي ونظري سوسيولوجي عميق في تمثل منطق الوقائع الاجتماعية التي يصنعها الكائن العربي ، بخلاف تلك العلاقة الجدلية المفتوحة بين السوسيولوجيا والثورة التي ما فتئ يعيد إنتاجها المجتمع العربي ، حيث تستلهم السوسيولوجيا روح الثورة و تتأطر الثورة بالمعرفة السوسيولوجية ، لتترك لنفسها حق المراجعة و تحديد النفس الثوري ، كلما تبدى السكون والمهادنة و السعي إلى التثبيت في الخطاب السوسيولوجي ، هذا ما نقرأه في تلك المرافقة الفكرية المعرفية السوسيولوجية للتحويلات التي ما فتئت التي تعرفها باستمرار

³⁰- بيبير بورديو، بؤس العالم، ج 3، منشور العالم، ص 429 .

المجتمعات الغربية ، ثورات إجتماعية و سياسية واقتصادية و طلابية وعمالية ،أطرها و اغتنى بها فكر فلاسفة وعلماء اجتماع من طراز ماركس و روسو، وماركيوز ، وفوكو ، وغرامشي ، بورديو ، غيرهم.

أما عربيا فكانت معاهد السوسيولوجيا و تظل حتى إشعار آخر ، تحت عدسات السلطة تبرمج مخرجاته و مدخلاتها ، من أجل تأييد واقع اجتماعي تمدد به عمرها في ممارسة المزيد من التسلط على هذه الكائنات الاجتماعية التي تحي في اسطبلاتها، وذلك عبر الترويض اللطيف الذي تستعين فيه بالمعرفة الاكاديمية ، فلا غرابة و قد أشار بورديو أن "الحكام سجناء محيط مطمئن من الفنين الذين يجهلون في كثير من الاحيان معظم ما يتعلق بالحياة اليومية لمواطنيهم ، ولا شيء يذكرهم بجهلهم"³¹.

أما خارج التدجين الذي تمارسه السلطة على السوسيولوجي بابعاده عن مواضع العلة ، وهندسة نتائجه ومقولاته على المقاس ، فإن الثورات العربية كشفت أيضا عن زيف القراءات النكوصية الحاملة ، التي ظلت في حالة تأمل مرضية لنموذج افتراضي ، إما إسلامي شرقي ، وإما تنويري غربي ، فوقع أنصار النموذج الأول في النزعة التراثية التي تسعى إلى فهم الوقائع الاجتماعية الراهنة بمقولات كلاسيكية ، فيما يقع النموذج الثاني في نزعة إسقاطية إستشراقية ، فتغفل الخصوصيات الثقافية والتاريخية للمجتمعات العربية ، وتسقط عندئذ في شرك المركزية الاوربية و امتداداتها في السوسيولوجيا الكولونيالية.

وما سبق يتبين أن الاخفاق السوسيولوجي الذي أبانت عنه الثورات العربية يعود إلى أسباب سياسية وما يرتبط بها من تهميش مادي و اعتباري و رقابة وتضييق ، كما يعود إلى ضعف معرفي و نظري و ما يرتبط به من استسهال و اجترار و هشاشة في التأطير والتكوين.

5/ رهانات السوسيولوجيا عربيا:

إن ما تعانيه السوسيولوجيا في العالم العربي ليس استثناءا ، بل هو واقع العلوم الانسانية و الاجتماعية بشكل عام، لأن موضوعها هو الذي يجلب لها كل هذا العناء و المخاطر ، ببساطة فإن حرفة علم الاجتماع كما يحددها محترفوها مثل بيير بورديو و بول باسكون و آلان تورين هي فضح النظام الذي تحدث وفقا له الوقائع الاجتماعية ، هي تنوير الفرد و تمكينه من أدوات فهم ذاته و غيره ، من فهم السلطة و آليات اشتغالها ، لهذا كانت السلطات تخشى من التحليل السوسيولوجي ، فتعتمد إما إلى إغرائه و تدجينه بالمناصب و الهبات ، وحين يتمنع تصعد معه ، بالتضييق و الغلق و التصفية الجسدية في بعض الاحيان، إن الهدف الذي ينبغي للسوسيولوجيا أن تتجه إليه عربيا هو " تمكين أعضاء المجتمع

³¹ - بيير بورديو، بؤس العالم، ج 3، منبوذو العالم، ص 427 .

من التصرف كفاعلين بقدر الإمكان ، و تحليل المجتمع نفسه من نظامه و إيديولوجيته و بلاغته عن طريق إبداع نظما للفعل ، بواسطتها تصوغ المنظومة الاجتماعية نفسها باستمرار... فهدف علم الاجتماع هو تنشيط المجتمع" ³².

إن التحدي الاساسي الذي ينتظر السوسيولوجيا عربيا هو القدرة على ممارسة النقد المزدوج بتعبير المغربي عبد الكبير الخطيبي ، المسار الأول يكون باتجاه ظاهرة الاستلاب النظري والمفاهيمي التي يعانيها البحث السوسيولوجي عندنا إزاء النظريات و المناهج الغربية ، و مايلق بها من حملات إيديولوجية و كولونيالية منتصرة للمركزية الغربية، فيما يتجه المسار الثاني نحو تحرير هذا البحث من استهجمات الذات و أحلامها والتعامل الموضوعي مع الوقائع الاجتماعية و تفكيك البدايات المغلقة التي تكرسها المكتسبات الثقافية القبلية ، كما يتطلب هذا النقد المزدوج التحرر من الايحاءات السلطوية و الوفاء للالتزامات العلمية الاكاديمية.

قائمة المراجع:

1. أحمد ابراهيم خضر، اعترافات علم الاجتماع، المنتدى الاسلامي، لندن ، ط 1 ، 2000.
2. أدرنو تيودور فون ،محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة جورج كتورة، مركز الانماء القومي ، بيروت ، ط 1 ، د ت.
3. آلان تورين، نقد الحداثة ،ترجمة أنور مغيث ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1997.
4. بيير بورديو، بؤس العالم ، ج 3، منبوذو العالم، ترجمة رنده بعث، دار كنعان للدراسات و النشر ، طبعة خاصة ،2010.
5. بيير بورديو، بؤس العالم ، ج 3، منبوذو العالم، ترجمة رنده بعث، دار كنعان للدراسات و النشر ، طبعة خاصة ،2010.
6. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة ،دارصادر، بيروت ، ط 1 ، 2000.
7. عروس الزبير،مدخل إلى تاريخ وواقع الممارسة السوسيولوجية، مجلة المستقبل العربي، العدد 400، جوان 2012.
8. سعد الدين ابراهيم ،المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 400، جوان 2012.

³² - آلان تورين، نقد الحداثة ،ترجمة أنور مغيث ، المجلس الأعلى للثقافة ، 1997، ص 13 .

9. مُجَّد عودة، أسس علم الاجتماع ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د ط ، دت.
10. يوسف صديق، الطلبة وإعادة إنتاج الارث الاجتماعي،
www.aljabriabed.net/n46_03yusuf.ht
11. هريبرت ماركيز ، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الآداب ، بيروت، ط 3،
1988.
12. هريبرت ماركيز ، العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط 1970.